انقلبتْ سَحْنَةُ ولَّادة كأنما أصابها المَسْخ، ونسيت مجلسها من ضرائرها، وما دعتهنَّ إلى الحديث فيه، فقالت مُنكرة: أي شيء تقولين يا عاتكة؟ وهل أوى عبد الملك إلى غير مقصورتي حين منصرفه من حلبة السباق؟

قالت عائشة بنت موسى: نعم، وجلس إليَّ ساعة يُرقِّص أبا بكر ويُغنِّي له:

يا مَلِكًا مِن مَلِكٍ من مَلِكِ
تِه واسْتَطِلْ على الملا وامتلِكِ
وَلِدْ ملوكًا كنُجُوم الحَلَكِ
يستبقون للعُلا في فلك!

قالت أم أيوب العثمانية مُحنَقَة: أمَّا الحَكَمُ ابني فلم يرقِّصه أحدٌ أو يُغنِّ له؛ إذ كانت أمه — بنتُ عثمانَ الخليفة المظلوم[٢] أقلَّ منزلة عند عبد الملك من بنات عَبْسٍ، وتيْمٍ، ويزيدَ بن معاوية!

ثم جمعت أطراف ثوبها، ونهضت مُعجَلة إلى مقصورتها، لم تُحيِّ أحدًا أو تستمع إلى تحيته، ونهض صواحبها كذلك فتفرَّقن في حجراتهن!

ودخل مسلمة على أُمه «ورد»؛ ليشهد في عينيها دموعًا حائرة، فلا تكاد تراه مقبِلًا حتى تُرسِل دموعها وتُطرق في انكسار …

– ماذا بكِ يا أماه؟

– لا شيء يا مسلمة.

– ولكنكِ تبكين يا أماه!

– لا تصدِّق كلَّ ما ترى عيناك يا مسلمة.

– هل نالكِ أحد بمساءة؟

– ومن ذا ينالني بالمساءة وأنا أُمُّ مَسلمة، وحَظِيَّة عبد الملك أمير المؤمنين وسيد بني مروان!

[٢] كان أبوها عثمان بن عفان — الخليفة الثالث — وقد مات قتيلًا، وقامت الدولة الأموية على أساس المطالبة بثأره، فما أجدر ابنته أنْ تكون في مكان الحظوة العالي.